

أهمية التحليل المفاهيمي في البحوث والدراسات العلمية

الدكتور بكاي ميلود

أستاذ محاضر بقسم العلوم الاجتماعية

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة زيان عاشور بالجلفة

مقدمة:

لا شك في أن للمصطلحات والمفاهيم الأهمية البالغة في انجاز البحوث والدراسات العلمية، لذلك فإن الأفراد الفاعلين في حقل العلوم من باحثين وأساتذة وطلبة يسعون دائما إلى ضبط مصطلحاتهم ومفاهيمهم التي يشتقونها من الفرضيات التي يقترحونها كقاعدة للدراسات والبحوث التي يقومون بها في اختصاصاتهم.

وكما هو متعارف عليه فإن انجاز البحوث العلمية يتطلب اعتماد خطوات أساسية ومنهجية ليصل البحث إلى نتائج علمية مقبولة من الناحية العلمية. ومن أهم هذه الخطوات هو تحديد المفاهيم والمصطلحات التي تعتبر من المهام الحساسة في البحث العلمي والتي يقف عندها الكثير من الباحثين خاصة الطلبة الجامعيين عند وصولهم إلى مرحلة إنجاز مذكرات تخرجهم. خاصة المنضوين تحت راية العلوم الإنسانية والاجتماعية هاته الأخيرة التي تسعى للوصول إلى ما وصلت إليه العلوم الطبيعية من دقة في قياسها للظواهر التي تتناولها بالدراسة، وبالتالي القدرة على التحكم فيها والسيطرة عليها.

ونحن إذ نتناول موضوع التحليل المفاهيمي، فهدفنا ما هو إلا محاولة للسير قدما نحو خدمة هذا الميدان ولإعادة النظر في طريقة تناولنا لأحد أهم خطواته التي أصبحت لا تحظى بالاهتمام خاصة من طرف طلبتنا على الرغم أهمية هذه المرحلة من البحث العلمي وهي تحديد المفاهيم والمصطلحات.

الأمر الذي ينقص من قيمة ما يطرحه الطلبة من دراسات، إن لم نقل وصولهم إلى اللامنهجية في الطرح.

ومساهمتنا هذه سوف تكون عن طريق تقديم وعرض لكثير من المفاهيم حول موضوع تحديد المفاهيم والمصطلحات، وكذلك التعاريف الإجرائية وكيفية ضبطها لتكون قابلة للقياس، وكيفية تفكيك المفهوم وتجزئة أبعاده وبنائها.

يمثل محور إعداد وتدريب الطلبة على البحث العلمي، أحد أهم محاور التكون في مجال العلوم الاجتماعية، حيث يتدرج الطلبة في ذلك على مدى سنوات التحصيل، في إطار المواد والمقاييس التي تحقق الإلمام بمناهج البحث وطرقه، مما يمكنهم نظرياً من التحكم في خطوات البحوث العلمية في مجال تخصصاتهم، وأهم ما يقوم به الطلبة من بحوث هو مذكرة التخرج التي تعتبر المحك الحقيقي الذي من خلاله يمكن الحكم على قدرة الطالب في تناول الظواهر قيد الدراسة، ومدى التحكم في الخطوات المنهجية المعتمدة في انجاز البحوث العلمية.

ويمثل انجاز المذكرات ومناقشتها هاجساً لدى طلبة السنة النهائية، فتجدهم مثلاً يمتعضون من قسوة الأساتذة أثناء مناقشة المذكرات، الأمر الذي يدفعنا إلى التفكير في سبب هذه الهواجس وأسباب الامتعاض. لكن المتمعن في هذه المسألة يجد أن الأمر يتعلق بالطالب في حد ذاته، فما يسميه الطالب قسوة الأستاذ المناقش هو في الحقيقة نقد علمي موضوعي لعمل منجز في إطار مقارنته بنموذج من المعايير الخاصة بنقد الرسائل الجامعية. وبالتالي تنبع القسوة من معيارية تحكم الطالب في تقديم عمله وكيفية الدفاع عنه.

ولكي يرقى العمل العلمي للطالب الباحث عليه إن يتحكم في جميع الخطوات المنهجية، ومن بين أهم تلك الخطوات هو تحديد المفاهيم والمصطلحات، فقضية المصطلح تمثل هاجساً ثابتاً من الهواجس التي تدفع بالفكر للبحث والابتكار والمغامرة في القضايا والظواهر. فالمصطلح يختزل الفكر والعصر والزمن، ويعطي للتواصل الإنساني دلالة واضحة ومحددة، ومنظمة.

1- المفهوم concept : يعرف بأنه مجموعة من الأشياء أو الرموز أو الأحداث، التي تم تجميعها على أساس من الخصائص المشتركة، والتي يمكن الدلالة عليها باسم أو رمز معين. ويعرف أيضاً بأنه

عبارة رمزية مثل أوجه الشبه بين عدد متباين من الظواهر. فمصطلح الرجال بالرغم من أنه مفهوم يشير إلى عدد من الاختلافات في السمات الفردية لديهم، ومع ذلك فإنه يصنف الرجال جميعاً في فئة واحدة على أساس التماثل في بعض الصفات البيولوجية. ويعرف قاموس أكسفورد المفهوم بأنه فكرة أو مبدأ مرتبط بأشياء مجردة.

2- المصطلح term:

يعتمد الكثير من الناس على المصطلحات للتعبير من خلالها عن أشياء وموضوعات وأمور يتعايشون معها، وهذه المصطلحات إما تخص معنى واحد أو تخص عدة معانٍ، ومنها ما يفهم بسهولة، ومنها ما يتطلب مصطلحات تضاف معه لكي يفهم معناه ويتضح.

وهناك ما يميز المصطلحات عن بعضها البعض من حيث أن منها ما يستخدم بين عامة الناس للتواصل في إطار التفاعل الاجتماعي العام. ومنها ما يدخل في إطار المجالات العلمية المحددة، وتصبح بذلك لغة تواصل بين أهل العلوم كل في اختصاصه. وهذه المصطلحات منها ما متفق على مضامينها ومقاصدها، ومنها الذي موال موضع خلاف. وميدان البحوث النفسية والتربوية معني بهذا كذلك.

وعرف معجم لاروس المصطلح بأنه العرف الخاص، أي اتفاق طائفة مخصوصة على وضع أو لفظ أو شيء. ويعرفه قاموس أكسفورد بأنه كلمة أو عبارة تستخدم مسمى لأشياء، وبخاصة تلك المصطلحات المرتبطة بموضوع ما أو المستخدمة بشكل معين في اللغة. ويعرف بأنه عبارة عن لفظة أو أكثر يستخدمها الباحث للتعبير عن مفهوم أو معنى معين.

إن تحديد معاني مصطلح ما، بناءً على الخصائص المشتركة المدركة حسيًا، مهمة ليست بالسهولة على الباحثين، وخاصة في ميادين البحث النفسي والتربوي، ومن بين هذه الصعوبات نذكر مايلي:

- بعض المصطلحات يصعب تحديد معانيها بدقة لكونها ألفاظاً على درجة كبيرة من التجريد.

- تلعب عوامل التخصص العلمي، واختلاف البيئات والأزمنة، واختلاف الخبرات والتجارب، دوراً مهماً في تحديد معاني المصطلحات التي يستخدمونها. وهنا نركز على موضوع التضمن الذي يسبغ العديد من المصطلحات، فتصبح ذات معاني زائدة على معانيها الأساسية فيما يسميه علماء اللغة «بالدلالة المركزية للألفاظ، والدلالة الهامشية». ويقصد بالدلالة المركزية تلك التي يشترك في فهمها عامة الناس المنتمين إلى البيئة اللغوية نفسها. أما الدلالة الهامشية فهي التي يتفرد بها بعض أفراد البيئة عن غيرهم.
- تتضمن أية لغة مصطلحات تدل على الكيف الذي تتصف به الأشياء بدرجة ما من ذلك: كان نقول قليل أو كثير، ثقيل أو خفيف، مرتفع أو منخفض، وهذه الألفاظ وإن أمكن تحديد الدرجة التي توجد بها في العلوم الطبيعية، إلا أن تحديد درجتها في العلوم الإنسانية والاجتماعية أمر صعب.
- بعض المصطلحات تشترك في اللفظ والشكل وتختلف في المعنى وهذا ما يسميه علماء اللغة ب: «المشترك اللفظي». وهناك من المصطلحات ما هو مركب من نفس الحروف وما إن تتغير حركة أحد الحروف حتى يتغير معنى الكلمة. ولقد اهتم بدراسة هذه الظاهرة اللغوية «محمد بن المستنير قرطب البصري 821م» في كتابه (المثلثات). (محمود سالم جدور، 2002)

3- أساليب تحديد معاني المصطلحات:

من أجل الوصول إلى مفهوم محدد وواضح لمصطلح ما، فهناك أسلوبين يتم من خلالهما تحقيق ذلك وهما:

- التعريفات التصورية.
- التعريفات الإجرائية.

3.1- التعريفات التصورية (المفهومية): ويقصد بها تلك التعريفات التي تصف المفاهيم باستخدام

مفاهيم أخرى. ولتحديد التعريف التصوري علينا إتباع مايلي:

أ- تحديد الخصائص البنائية والوظيفية للمصطلح: ويقصد بالخصائص البنائية للأشياء، أي المادة التي تتكون منها هذه الأشياء. وكمثال على ذلك فإن مصطلح الأسرة يمكن تعريفه بنائياً بأنه تلك المجموعة الاجتماعية المكونة من الزوج والزوجة والأطفال. وأما وظيفياً فيصاغ التعريف بإضافة مجموعة الوظائف التي تؤديها الأسرة: كوظيفة الإنجاب، الوظيفة التعليمية، وظيفة التنشئة الاجتماعية، الوظيفة الاقتصادية، وظيفة الحماية،....

ويتوقف قرار التركيز في التعريف على الجانب البنائي، أو الوظيفي، أو كليهما، على الأهداف الرئيسية للبحث.

ب- ربط المفهوم بالتعريفات السابقة له: ويكون ذلك عن طريق مراجعة التعريفات السابقة والحالية للمفهوم. ومحاولة الوصول إلى المعنى المتفق عليه في أغلب التعريفات، ثم يتم إخضاعه للنقد وعرضه على محكمين وخبراء من ذو الاختصاص. ومن ثم إدخال التعديلات النهائية على التعريف، بما يتفق وأغراض البحث.

ج- التحقق من دقة المفهوم وعموميته: وذلك عن طريق التأكد من أنه تتوافر في المفهوم صفة الإيجاز، وأنه محدد المعنى، وأنه يعبر عن فكرة واحدة، وتتوافر فيه صفة العمومية، وأنه يتناسب مع أهداف البحث.

2-3 التعريفات الإجرائية: يقصد بالتعريف الإجرائي التعبير عن المفهوم بطريقة تبين كيفية قياسه. ويقصد بها كذلك إخضاع المفهوم للملاحظة الدقيقة، وما يتبعها من القياس والتسجيل. وبالتالي تعد الاستعانة بالتعريف الإجرائي خطوة مهمة لقياس الظواهر ومنها الوصول إلى النتائج التي تسمح بإصدار التعميمات التي تقود للوصول إلى النظريات. وهو ما أشارت به سالتز وزملاؤها من أنه مهما كانت تعريفات الباحث المنهجية لمفاهيمه بسيطة أو مفصلة، فإنه يجب إذا كان يريد أن يجري بحثاً أن يجد طريقاً لترجمة هذه التعريفات إلى أحداث يمكن ملاحظتها. (محي الدين مختار، 2001، 56)

وللوصول إلى ضبط التعريف الإجرائي يجب إتباع خطوات علمية ومنهجية، تمكن من الوصول لقياس ما وضع من فروض، هاته الأخيرة التي تعتبر الصياغة الحدسية للعلاقة بين متغيرين أو أكثر، والتي يتم بفضلها الانتقال من الجانب التجريدي إلى الجانب الملموس للطريقة العلمية. فقد تكون لدينا أفكار مميزة لتصوير الواقع، إلا أن هذه الأفكار لا تكون لها قيمة حتى يتم النجاح في جعلها فرضيات، يسمح الواقع بإثبات صحتها. إن هذا الواقع الذي نتوجه إلى ملاحظته لا يؤكد بالضرورة صحة الفرضية المقترحة في بداية أي بحث، لكن بفضل صياغتها يمكن لهذا الواقع أن يأخذ معناه ومدلوله الحقيقي حتى ولو سارت الفرضية في الاتجاه المعاكس للتنبؤ.

4- التحليل المفهومي :

إن التحليل المفهومي هو سيرورة تدريجية لتجسيد ما نريد ملاحظته في الواقع، ويبدأ هذا التحليل أثناء استخراج الباحث المفاهيم من فرضياته أو من أهداف بحثه. ويستمر هذا التحليل أثناء تفكيك كل مفهوم لاستخراج الأبعاد، ومن تشريح كل بعد وتحويله إلى مؤشرات أو ظواهر قابلة للملاحظة والقياس. بعد ذلك يمكن للباحث الوصول إلى تجميع المؤشرات لإيجاد قياس تركيبي وهو ما يسمى بالدليل. (موريس انجرس، 2004)

5- المفاهيم ودرجات التجريدية :

إن بعض الحدود المستعملة في طرح التساؤل أو الفرضية أو هدف البحث تأخذ صبغة مفاهيم، وهي مجرد تصورات ذهنية لمجموعة متنوعة من الظواهر التي نريد ملاحظتها. وكلما ارتفعت درجة تجريد المفهوم، كلما تطلب ذلك القيام بعدد أكبر من عمليات التجسيد للوصول إلى مستوى من الواقع الملحوظ.

وكما ذكرنا سابقاً فالتعريف بالمفهوم ذو أهمية بالغة، إذ لا يتوقف تناول العلمي للظاهرة عند التحديد الجيد للمصطلح أو المفهوم بل يتعداه إلى إعطاء تعريف يمكن من قياسه. إن هذه العملية تسمح بتبديد الغموض والشكوك وضبط موضوع البحث، مما يسهل العمليات الموالية.

6- أبعاد المفهوم : انطلاقاً من أن المفهوم هو تصور تجريدي فإن الشروع في تجسيده يتطلب

تفكيكه أبعاده المختلفة، وهنا يتعلق الأمر بفحص معانيه العميقة، وأنه يشير إلى جوانب متنوعة من الواقع، وأن له أوجهها مختلفة. الأمر الذي يشكل الأبعاد أو ما يسمى بمكونات المفهوم.

7- تفكيك المفهوم :

انطلاقاً من التعريف يمكن استخراج أبعاد المفهوم، فمثلاً إذا أخذنا الفرضية القائلة بأن «الرضا الوظيفي للمعلمين يؤثر في الأهداف التربوية» فإننا هنا ربطنا بين مفهومين رئيسيين وهما: الرضا الوظيفي والأهداف التربوية فبالنسبة لمفهوم الرضا الوظيفي يمكننا استخراج عدد من الأبعاد وهي المزايا والمرتبات، تحقيق الذات، طبيعة العمل وظروفه، العلاقة مع المسؤولين.

أما مفهوم الأهداف التربوية فيمكننا أن نستخرج منه الأبعاد التالية: أهداف حس-حركية، أهداف انفعالية، أهداف اجتماعية، وأهداف معرفية. إن الوصول إلى استخراج هذه الأبعاد يعتبر تفكيكاً للمفهوم انطلاقاً من التعريف الأولي وموقعه في الدراسة، حيث أنه إذا تم تحديد تعريف مختلف للمفهومين السابقين في دراسة أخرى، فإن الأبعاد يمكن تختلف عن التي تم عرضها سابقاً للمفهومين في المثال المقترح.

8- تجزئة البعد : إن الحصول على الأبعاد لا يعتبر ذا فائدة إن لم الانتقال إلى مرحلة أخرى أكثر أهمية، وهي التي تمكننا من الانتقال من التصور التجريدي إلى الواقع الملاحظ، ذلك إن البعد لا يكون قابلاً للقياس لأنه في مستوى أعلى من مستويات الأجزاء التي تصف الواقع بدقة، والتي يمكن من خلالها قياسه. وبالتالي كان لزاماً تجزئة البعد إلى أبعاد فرعية (أبعاد تحتية) تقربنا من الواقع الذي نريد ملاحظته.

9- مؤشرات بعد المفهوم : لو رجعنا على مسار التحليل المفهومي لوجدنا أننا قد استخلصنا من الفرضية حدود أو مفاهيم رئيسية، ثم قمنا بتعريفها مؤقتاً ثم قمنا بإبراز جوانب كل مفهوم أو أبعاده التي ينبغي الاحتفاظ بها. ومن ثم فينبغي ترجمة هذه الأبعاد إلى سلوكيات أو ظواهر ملاحظة. أنه دور المؤشر.

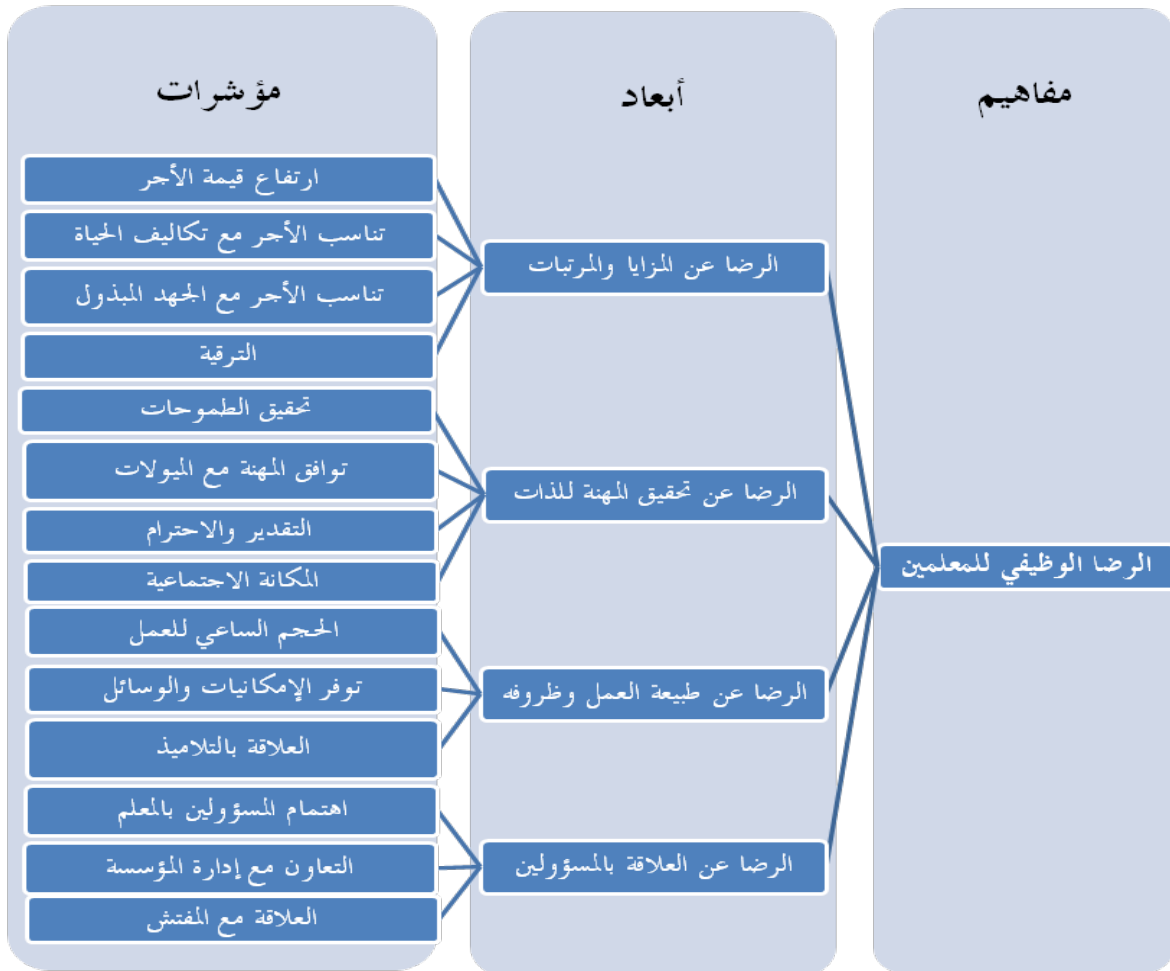
10- عدد مؤشرات البعد : يمكن أن يكون عدد المؤشرات كبيراً بالنسبة إلى كل مفهوم،

ذلك انه يمكن ملاحظة كل بعد من الأبعاد من خلال عدة مظاهر ملموسة، مما يتطلب اختيارها وفقاً للوسط المدروس والحصول على العدد الكافي منها للتمكن من التحليل. إن مؤشراً واحداً يمكن أن يكون خادعاً، لكن إذا كان هناك عدد كبير من المؤشرات، فإن صلاحية البعد ستكون أكثر ضماناً. ذلك أن استعمال العديد من المؤشرات هو الذي يضمن التقييم الموضوعي والدقيق للبعد وللمفهوم اللذين تتعلق بهما المؤشرات.

إن المؤشرات تبين التجسيد الناجح للفرضية، مادام القيام بالبحث يتضمن الذهاب للتحقق من بعض الاقتراحات في الواقع فلا بد أن نستخرج إذن من هذه الأبعاد مؤشرات قادرة على إثبات هذا الواقع. هكذا فإن المؤشرات تصبح تمثل الجانب الظاهر للتصورات المجردة.

نموذج لتحليل مفهومي لفرضية

مثال: الرضا الوظيفي للمعلمين يؤثر على الأهداف التربوية



بنفس الطريقة التي تم بها تحليل مفهوم الرضا الوظيفي نقوم بتحليل مفهوم الأهداف التربوية، فنجده ينقسم إلى أهداف حركية، وأهداف اجتماعية، وأهداف انفعالية، وأخرى معرفية. وبالتالي نصل إلى التحليل المفاهيمي للفرضية الموضحة في المثال.

إن النموذج الموضح عن طريق المثال يمثل طريقاً لتحرك الباحث من مستوى التعريف التصوري إلى مستوى التعريف الإجرائي للمصطلح، ووصولاً إلى مرحلة القياس، والتحليل الكمي، ومن ثم النتائج. ونوضح ذلك عن المخطط التالي (محمود سالم جدور، 2002):



وهذا الانتقال هو في الحقيقة انتقال من الإشكالية إلى الفرضية والذي يعني انتقالاً من المفاهيم النظرية إلى المفاهيم الإجرائية حيث أن الفرق بين المفاهيم النظرية والمفاهيم الإجرائية هو الفرق بين المفهوم المركزي الذي يتمتع في العادة بأبعاد أو خصائص أو سمات تقع على درجة عالية من التجريد، وبين مفاهيم فرعية داخل المفهوم المركزي تتمتع في العادة بأبعاد أو خصائص أو سمات أكثر اقتراباً من المحسوس. (عبد الله إبراهيم، 2004، 230)

المراجع:

- أمين علي سليمان، صلاح أحمد مراد، الاختبارات والمقاييس في العلوم النفسية والتربوية، دار الكتاب الحديث، 2002.
- رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية، ط1، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت/دمشق، 2000.
- إخلاص محمد عبد الحفيظ، مصطفى حسين باهي، طرق البحث العلمي والتحليل الإحصائي في المجالات التربوية والنفسية والرياضية، مركز الكتاب للنشر، 2000.
- موريس انجرس، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2004.
- العياشي عنصر، نحو علم اجتماع نقدي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003.
- محمود سالم جدور، المصطلحات والمفاهيم في البحث العلمي، مجلة كلية الآداب بالزاوية، العدد (0)، ليبيا، 2002.
- المنصف وناس، مقاربة نظرية للمصطلح عند ابن خلدون، سلسلة كتب المستقبل العربي، العدد 31، بيروت، 2001.
- عبد الرحمن صالح الأزرق، علم النفس التربوي للمعلمين، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 2000.
- عبد الله إبراهيم، علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2004.
- محي الدين مختار، المفاهيم والتعريفات الاجرائية في البحوث الاجتماعية، سلسلة المعرفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2001.